

العقيد لخضر بن طوبال قائدا ومنظرا للثورة الجزائرية

أ. د. / عبدالله مقلاتي

قسم التاريخ

جامعة محمد بوضيان المسيلة

مقدمة:

من بين الشخصيات القيادية التي قدر لها أن تؤدي دورا وطنيا العقيد لخضر بن طوبال، وهو قيادي أسهم في تكوين المنظمة الخاصة والتحضير لاندلاع الثورة، وقاد بنجاح إحدى نواحي المنطقة الثانية، وخلف زيغود في قيادة الولاية الثانية. ثم انتقل في ماي 1957 إلى الخارج وهناك أصبح رفقة بلقاسم كريم وبوصوف النواة القيادية الصلبة لجبهة التحرير الوطني إلى غاية تحقيق الاستقلال، هذه الشخصية القيادية الهامة ما زلنا نجهل عنها الكثير، خاصة وأن الرجل فضل أن يرحل في صمت، وما تزال مذكراته مخطوطة، وهو ما جعلنا نبذل في بحثنا جهدا كبيرا في التعرف على ملامح شخصية الرجل وعلى مظاهر نبوغه وحكمته، واستطعنا إلى حد ما أن نرم صورة المشوار النضالي لأحد الباءات الثلاث، وأن نبرز دوره القيادي والتنظيري في الثورة التحريرية .

أولا / ابن طوبال مناضلا ثوريا في الحركة الوطنية:

ابن طوبال أحد القادة والمنظرين الرئيسيين للثورة التحريرية ووزير الداخلية في الحكومة المؤقتة، ولد وناضل في ظروف خاصة سمحت بتبلور شخصيته الوطنية والثورية، فهو من مواليد سنة 1923 بميلة

القريبة من عاصمة النضال الوطني قسنطينة، نشأ في أسرة ريفية فقيرة تعرضت لظلم وخطرة المستعمر، تلقى تعليمه الابتدائي بمسقط رأسه، وتعلّمه الثانوي الذي لم يكمله بقسنطينة، وذلك في ظرف كان يعج بتصاعد المطالب الوطنية والدعوة للعمل الثوري، انخرط ابن طوبال في حزب الشعب خلال الحرب العالمية الثانية ونشط سرّيا في أداء مهام حيوية، وأصبح عضوا نشطا في المنظمة الخاصة بعد تأسيسها عام 1947. لجأ إلى الأوراس بعد اكتشاف المنظمة ثم رجع إلى السمنندو ومنها إلى القبائل، وعاش مطاردا يترقب موعد اندلاع الثورة⁽¹⁾.

آمن ابن طوبال بفكرة الاستقلال وضرورة استرجاع السيادة بالقوة، ولعل ذلك راجع إلى ظروف الحرمان التي عاشها والى فطرته السلمية، وهذا ما تشهد به شهادته، "أنا شخصيا انخرطت في الحزب، ومنذ صغري وأنا أومن إيمانا راسخا بأن هذا الحزب يتجاوب مع مطامحي، وهذا هو السبب الوحيد الذي جعلني أنظر إليه، وكنا نؤمن بأن السبيل الوحيد للخلاص من فرنسا هو استعمال القوة، وهذا كان إيماني منذ صغري وبكل بساطة ودون تعمق، وفعلا وأكبنا مسيرة الحزب، وقد كان الحزب يتجاوب مع اعتقادنا، لأنه كان يواصل إعدادنا ليوم التضحية الكبرى طوال سنين عديدة، وقد رضينا أثناء تلك الفترة بالسجون كوسيلة - كمرحلة-، ورضينا بالعمل السري، ومن الإخوان أيضا من رضوا بالموت..."⁽²⁾.

لقد تأكد ابن طوبال أن الشعب قد وصل إلى مرحلة النضج والمبادرة لحمل السلاح، وأن الأحزاب بما في ذلك حركة الانتصار هي التي عجزت نتيجة أزماتها في تحقيق الغاية من النضال السياسي⁽³⁾، وكانت تجربته ثرية في المنظمة الخاصة، وتحفل شهادته المقدمة عام 1981 بمعلومات ثرية، فهو يؤكد أن انخراطه في هذه المنظمة العسكرية سمح له بمراجعة تفكيره السياسي ودروسه العسكرية عدة مرات، "وصرنا نتساءل وأحيانا كان يتسرب إلى نفوسنا الشك، وكنا نقول أن الحزب قد اختار العناصر الثورية التي برزت في سنة 1948 وأدخلها في هذه المنظمة العسكرية لكي يشغل هذه العناصر، هل هذا الرأي صحيح؟ لكن مع الأسف فالأيام أكدت صحته"⁽⁴⁾، وكانت مرحلة ما بعد اكتشاف المنظمة الخاصة قد فتحت أعين ابن طوبال ورفاقه على السياسة التي يمارسها الحزب "بدكاء مصلحي فتوي"⁽⁵⁾.

1 - عبدالله مقلاتي : أعلام شهداء وأبطال الثورة الجزائرية، منشورات وزارة الثقافة، الجزائر، 2009، ص 357

2 - شهادة ابن طوبال، المنظمة الوطنية للمجاهدين: الطريق إلى نوفمبر كما يرونها المجاهدون، د م ج، الجزائر، 1981، ج 3، ص 26.

3 - شهادة ابن طوبال، المصدر نفسه، ص - ص 26- 27

4 - شهادة ابن طوبال، المصدر نفسه، ص - ص 27

5 - حول هذه السياسة وظروف نضال واختفاء قادة المنظمة الخاصة انظر شهادة مشاطي، محمد مشاطي: مسار مناضل، ترجمة زينب في، منشورات الشهاب، 2010، ص 51 وما بعدها.

عاش ابن طوبال في الأوراس ظروفًا صعبة من المشقة والعزلة، ولكن توجهات القيادة الثورية وعلى رأسها حشاني إبراهيم ومصطفى ابن بوالعبد ومسعود بلعقون صنعت منه رجلاً ثورياً بدون رجعة، حيث رسم طريقة الثوري وعارض سياسة الإصلاحيين والسياسيين داخل الحزب⁽¹⁾، وقد أوضح ابن طوبال في هذا الشأن قائلاً: "وكنا منعزلين عن حزبنا وتعرضنا لضغوط أدبية ومادية لكي نياس ونفشل ونترك الحديث على الثورة، وكانت التعليمات تمنعنا من التكلم في السياسة لأن الناس في الأوراس حسب زعمهم لا يعرفون المقاومة ضد الاستعمار"، كانت هذه حجة واهية في نظر ابن طوبال الذي قضى 26 شهراً بالأوراس وتؤكد من أن سكانه كانوا مستعدين وابتظار أوامر الحزب بالدخول في الكفاح المسلح، "وجدنا الشعب قد سبقنا بخطوات أي سبق الحزب، ووجدنا في ذلك الوقت أن الحزب هو الذي كان متأخراً عندما كان يقول بأن الشعب ليس مستعداً. وفي رأي أن هذا كان بسبب قلة إيمان الحزب بالشعب لأن الانفصال قد وقع بين القيادة والشعب، وقد كنا نعيش في المدن ولا نعرف حقيقة الوضع في البوادي"⁽²⁾.

وبذلك كانت الأوراس مدرسة لابن طوبال وأقرانه، اكتشف من خلالها طباع الشعب الجزائري خاصة في الريف، وحقيقة استعداده للثورة وضرورة انتهاز الفرصة لإعلان الثورة، في هذه الظروف رفض ابن طوبال بشدة مقترح الحزب الذي بلغه المرحوم بوجريدة للمناضلين بالاستسلام للشرطة الفرنسية، وفضل خيار الهجرة إلى الخارج، كان بإمكان ابن طوبال أن يصبح مناضلاً سياسياً متجولاً في شوارع القاهرة، لكن كتب له أن يبقى متخفياً بجبال الأوراس والسمنندو والقبائل إلى غاية اندلاع الثورة التحريرية⁽³⁾.

وقد كانت أزمة الحزب مناسبة لبروز تيار قدامى المنظمة الخاصة كما يوضح ابن طوبال، "كنا نقف منها موقف الحياد ولا نحمل مسؤولية هذا الانفجار على أحد من طرفي النزاع سواء مصالي أو اللجنة المركزية، وإنما كنا نعتبر أن القيادة بطرفها كانت هي الخاسرة، ولم نختار الانحياز إلى أحد الطرفين وهو ما قمنا به فعلاً"⁽⁴⁾، وكان ابن طوبال يجتمع حول زيغود ويشكل مجموعة متماسكة من قدامى المنظمة الخاصة، سوف يكون من السهل انحيازها للتيار الثوري الذي فجر الثورة.

ثانياً / المشاركة في تحضير وقيادة الثورة : حضر ابن طوبال اجتماع الاثنين والعشرين التاريخي رفقة زيغود وابن عودة وواجي مختار، ومن بين ما سجله عن هذا الاجتماع أنه حصل الإجماع فيه على الانتقال إلى

1 - حول هذه الظروف، انظر: مصطفى ابن بوالعبد والثورة الجزائرية، منشورات جمعية اول نوفمبر لتخليد وحياة مآثر الثورة. باتنة، دار الهدى الجزائر، 1999، ص 350

2 - شهادة ابن طوبال، المصدر نفسه، ص - ص 27-28

3 - المصدر نفسه، ص - ص 27-29

4 - نفسه، ص 29

مرحلة العمل المسلح وانتخاب منسق وطني لاختيار قيادة، وخلالها لم يطرح مشكل السلاح والتموين كألوية حسب ابن طوبال، لأن كل واحد كان يعرف أن الآخر لا يملك سلاحا، وجاءت مرحلة تجسيد هذا القرار التاريخي فتوجهت قيادة الشمال القسنطيني إلى الميدان، وبرز دور ابن طوبال جليا، حيث ذكر في إحدى شهادته ما كان يشغل باله قائلا: "وعندما اتخذنا القرار، قرار إعلان الثورة توجه كل واحد منا لمنطقته واستعمل وسائله الخاصة، وما أذكره حسب تجربتي الخاصة أننا في ذلك الوقت لم تكن مسألة السلاح من بين الأمور الصعبة التي كانت تواجهنا، لأننا لم نكن نفكر في فتح جبهة لمواجهة قوات العدو، إذ لم يكن الحصول على السلاح هو المسألة الصعبة إنما المسألة الصعبة حقيقة هي مسألة الحرب بيننا وبين أنفسنا، هل أن الإخوان الذين عاهدونا بأن يسيروا معنا سيثبتون ويطلقون الرصاص الأولى أم لم نكن متأكدين من أنه عندما نشرع مع هؤلاء الإخوان في خوض المعركة المسلحة في أول نوفمبر في تلك اللحظات القصيرة الحاسمة باستطاعتهم أن يتجاوزوا تلك اللحظة التاريخية، وهكذا كنا في حرب مع أنفسنا، هل تقبل الموت أو نفر منها؟"⁽¹⁾.

ويؤكد ابن طوبال على أهمية خطوة تفجير الثورة في إنجاح الثورة، وذلك باعتبار أن ذلك كفيل بدفع الشعب لاحتضان الثورة وإنجاحها، "عندما اجتزنا مرحلة الانطلاقة أدركنا أننا سننجح لأنه إذا انطلق الرصاص في أول نوفمبر في الجزائر بأسرها فإن الأمر يصبح عندئذ سهل، لماذا؟، لأن الحركة الوطنية لم تكن في المدن فقط بل كانت في البوادي كذلك، فقد دخلت البوادي ويعني أنها دخلت لدى الشعب الحقيقي، فالأوراس وحده كانت قسمتها عندما غادرناها تظم ألفين وأربعمائة مناضلا، وكانت قسمة سكيكدة تضم ألفين وستائة مناضلا، والقسمة لبست الدائرة، ولم تكن مشكلة الأكل عندما نخرج من المدن مطروحة، فالمناضلون في البوادي كانوا على أهبة الاستعداد للقيام بذلك، وعندما انطلقت الرصاص الأولى وما كنت أفكر فيه في الولاية التي كنت موجودا بها هل انطلقت هذه الرصاص في الولايات الأخرى لأن الاتصال كان غير موجود بيننا، بحيث كان الاتصال الوحيد بيننا هو بواسطة الجرائد الفرنسية أو الإذاعة ... وكان فرحنا شديدا عندما سمعنا بأن كل الجزائر قد ثارت وسارت في طريق الكفاح وعمتها الثورة"⁽²⁾.

وقد كان ابن طوبال في مستوى تحدي إنجاح تفجير الثورة، تولى مسؤولية قيادة ناحية ميلة والميلية، وبذل جهودا كبيرة في تحضير الأفواج للعمليات التفجيرية، في الميلية كانت الانطلاقة ناجحة كما يشهد على ذلك مسؤولو المنطقة المحليين⁽³⁾، وفي ميلة تسعفنا شهادة العربي بلرجم الملي في الإحاطة بظروف تفجير

1 - شهادة ابن طوبال، المصدر نفسه، ص ص 30، 41- 43

2 - شهادة ابن طوبال: المصدر نفسه، ص ص 30- 31

3 - انظر شهادة المجاهد شيخ، عمر شيخ العيدوني: "ملكة الفلاحة" شهادة المجاهد عمر شيخ العيدوني، دار الهدى، عين ميلية، الجزائر،

2011، ص ص 48- 54

الثورة، حيث يذكر أن فوج ميلة المشكل من 16 مجاهدا كان يقوده ابن طوبال، وأن التحضيرات كانت شاقة وعصفت بها خلافات المسؤولين أنفسهم، وأن ابن طوبال كان مقربا من زيغود وين عودة، رجع إلى ميلة بالتعليمات التي جاء بها ديدوش من العاصمة ولكنه وجد صعوبة في الاتصال بفوج ميلة كما يذكر بلرجم، وقد اجتهد هذا الأخير في ربط الاتصال به بعد أن اعتقد ابن طوبال أن الجماعة تخلوا عن الثورة، ولكنه حمد الله بعد أن أدرك أن الأمر يتعلق بانعدام الاتصال، كانت أفواج ميلة والميلية في موعد تفجير الثورة، وكان ابن طوبال حكيما في تسيير هذه الناحية، فقد كان متفهما للظروف وعطوفا على جنوده من جهة، وصارما حريصا على النظام من جهة أخرى⁽¹⁾.

أخذ ابن طوبال تعليماته من قائد المنطقة ديدوش مراد، كان تصور هذا الأخير للثورة واضحا، ينبغي بعد العمليات التجريبية للثورة التفرغ للعمل السياسي وزرع خلايا الثورة في الأرياف ثم المدن، ولا يمكن خوض العمليات العسكرية في نظره خلال هذه المرحلة إلا في حالة الضرورة، لأن ذلك يفقد الثورة ملاذها الآمن بين السكان ويخرجها إلى مجابهة غير متكافئة، كانت حرب العصابات إذن هي إستراتيجية العمل الثوري لابن طوبال حسب شهادات المجاهدين⁽²⁾، وقد أظهر ابن طوبال ورفاقه حنكة في مواجهة الظروف الصعبة التي واجهت الثورة في أشهرها الأولى، والتي كان من ملاحظها سلسلة ملاحظات الثوار المدروسة، والتي كشفت إحداها موكب مراد ديدوش وقضت عليه في 18 جانفي 1955 بالسمنود⁽³⁾.

وإثر استشهاد ديدوش وتولى زيغود قيادة المنطقة اعتمد ابن طوبال مساعدا رئيسيا لقائد المنطقة إلى جانب مسؤوليته على ناحية ميلية والميلية، وسمحت خبرة هذا المسؤول ونجاحاته بانتشار الثورة على نطاق واسع بهذه الجهة، وقد كان ثوريا مثل زيغود لازمه طويلا وتقاسم أفكاره، وقد وافقه على مخطط الهجومات الكبرى، والهادفة إلى تأكيد حضور الثورة في وجه السياسة الفرنسية الساعية لقبور الثورة في مهدا بالشمال القسنطيني، كان ابن طوبال يحضر الاجتماعات التي ترسم إستراتيجية العمل الهجومي ويعود لتنفيذ هجماته في نواحي ميلة والميلية، وافق ابن طوبال زيغود على شن هجمات يوم الثامن ماي 1955، للرد على العدو وإشعار الجماهير باستمرارية الثورة في يوم تاريخي. وجاءت ذكرى احتلال الجزائر في 5 جويلية 1955 ليخطط زيغود وابن طوبال لهجمات مماثلة⁽⁴⁾، ومهد هذا لهجات 20 أوت 1955 التي كانت لها أبعاد محلية ووطنية ودولية.

- 1 - شهادة العربي بلرجم، المنظمة الوطنية للمجاهدين: الطريق إلى نوفمبر كما يروها المجاهدون، ج 3، المصدر السابق، ص 93 - 94
- 2 - إبه جانب من تعليمات ابن طوبال التي كانت تصل إلى أفواج المجاهدين، عمر شبيخ العبدوني: المصدر السابق، ص 70
- 3 - علي كافي: مذكرات الرئيس علي كافي من المناضل السياسي إلى القائد العسكري، دار القصة، الجزائر، ص 98
- 4 - علي كافي: مصدر سابق، ص 100 - 101

ثالثا / ابن طوبال وهجمات 20 أوت 1955 شهادة فاصلة :

نضجت فكرة الهجمات في ذهن زيغود يوسف خلال جوان 1955، وبدأ يعد جديا لتنفيذها في الشهر الموالي، حيث وجه الدعوة لمسؤولي المنطقة لحضور اجتماع بمنطقة "بوسطور" قرب سيدي مرغيش، ولدواعي أمنية غير مكان الاجتماع إلى منطقة "الزمان" ببلدية محمود بوشطاطة حاليا، بدأ الاجتماع أشغاله يوم 23 جويلية 1955، واستمر إلى نهاية هذا الشهر، تدارس المجتمعون خلاله الوضعية العامة للثورة بشكل عام وبمنطقة الشمال القسنطيني بشكل خاص، وأكد خلاله زيغود ضرورة الخروج بالثورة من المأزق الذي وصلت إليه، وإثبات قوتها وشموليتها بعمل باهر، وطرح فكرة تنظيم هجمات شاملة على مدن وقرى الشمال القسنطيني يوم 20 أوت 1955، يشارك فيها المجاهدون والمواطنون جنبا إلى جنب وبالإمكانات المتوفرة⁽¹⁾.

لقد أدرك ابن طوبال أهمية الخطوة واستعد لإنجاحها، وكان مساعده العربي بلرجم حاضرا عندما أعطى زيغود الأوامر لابن طوبال، وبعد عقود قدم لنا شهادة في ملتي كتابته تاريخ الثورة التحريرية عام 1981 ثني على محمود وحكمة ابن طوبال في تنفيذ هذه الهجمات، فهو يقول: "ومجرد وصولنا إلى الجهة شرعنا في التخطيط بحضور المسعود الطاهيري الذي لا يزال على قيد الحياة وهو هنا، وكذلك سي مسعود بوعلي، تمت العملية تحت رئاسة ابن طوبال، بعد تخطيط سليم جدا، وأقول التخطيط سليما لأن سي عبدالله ابن طوبال حكيم وحكيم جدا، ولا ألقى له الزهور وإنما هي الحقيقة"⁽²⁾.

وقد تولى ابن طوبال مسؤولية قيادة الناحية الأولى التي تمتد من سوق الاثنين غربا إلى وادي الرمال شرقا وتصل إلى ميلة والعلمة وسطيف جنوبا، وكانت الهجمات ناجحة في هذه الناحية، فني هجمة الميلية شنت عدة هجمات على مشارف المدينة بهدف السيطرة عليها، وقد نجح كين المجاهدين في الإيقاع بحاكم الميلية العقيد "رينو"، ونصب كين آخر في طريق حمام بني هارون⁽³⁾. كما وقعت عدة هجمات على مراكز العدو بجهة جيجل، ومنها الهجوم على الطاهير، وكذلك الحال في منطقة ميلة التي كانت مركز قيادة ابن طوبال، وتذكر شهادات المجاهدين أن ابن طوبال قاد بنفسه معركتين في "أرقوا" و"بادسي"، مكن الانتصار فيها من تحرير أول منطقة مستقلة في تاريخ الثورة اتخذها ابن طوبال مركزا لقيادة منطقة الشمال القسنطيني⁽⁴⁾.

-
- 1 - راجع شيبوط إبراهيم: عمليات 20 أوت 1955 بالشمال القسنطيني، مجلة أول نوفمبر، العدد 39 (1979)، وموسى تواتي ورايح عواد: هجوم 20 أوت 55، دار البعث، قسنطينة، 1992، ص ص 13-17
 - 2 - شهادة بلرجم، المصدر السابق، ص 96
 - 3 - عمر شيدخ العيدوني: المصدر السابق، ص ص 74-79، وعمار قليل: ملحمة الجزائر، دار البعث، قسنطينة، ج 2، ص 184
 - 4 - عمر شيدخ العيدوني: المصدر السابق، ص 75

وهكذا يعد ابن طوبال من القادة المخططين والمنفذين لهذه الهجمات، وتحفل شهادته المطولة والمفيدة بمعلومات هامة، تكشف كثيرا من الحقائق المهمة، ولأهميتها نورد جزء منها، فقد قال ابن طوبال ما يلي :
 "وفي ناحيتنا كان سي أحمد زيغود واسمه الصحيح سي يوسف زيغود قد جمع مسؤولي الولاية الثانية للتفكير في الطريقة الحارقة للعادة التي لم يسبق أن قمنا بها في الثورة، والتي بواسطتها نستطيع فك الحصار ليس على الولاية الأولى فقط وإنما علينا نحن كذلك... أما الأهداف الأخرى والتي يمكن أن نعتبرها خارجية بالنسبة للولاية الثانية فهي:

- 1 - فك الحصار على الولاية الأولى التي كانت عرضة للموت.
- 2- توجيه رسائل لكل الولايات الجزائرية، وأذكر بالمناسبة أنه لم يكن بيننا آنذاك وبين بقية الولايات أي اتصال وكذلك مع إخواننا في الخارج والعلاقة الوحيدة التي كانت بيننا هي الجرائد الفرنسية، ففكرنا في القيام بعمل مثير من شأنه أن يجعل الجرائد الفرنسية تتكلم عنه وبذلك يعرف بقية إخواننا أن الولاية الثانية لم تمت... وهناك أهداف على المستوى الجهوي بالنسبة لشمال إفريقيا، ولم يكن يغيب عن أذهاننا أننا نخوض ثورة وفي خضمها لم ننس مسألة توحيد المغرب العربي...
- 3 - لفت انتباه الرأي العام العالمي والهيئات الدولية لتضيتنا"⁽¹⁾.

وركز ابن طوبال على هدف إفشال سياسة الحاكم العام الفرنسي سوستيل الإصلاحية فقال موضحا :
 "وكان رد فعل الفرنسيين عن هجوم 20 أوت قد تمثل في الانقلاب الذي حدث في عقلية سوستيل فقد انتقل من اليسار إلى أقصى اليمين وأعاد النظر في سياسته بأكملها، وهكذا أصبحت الحرب بيننا وبين فرنسا وأصبحت كل نوايا سوستيل وكل نوايا إخواننا الذين آمنوا بعض الإيمان بسياسة الإصلاحات التي أتى بها سوستيل لاغية"⁽²⁾.

إن هذه الشهادة سوف تظل المرجع الأساسي لتاريخ هذه الهجمات، إن زيغود وابن طوبال قررا أن تنجح الثورة، وخطوا للتوار طريقا نحو تحقيق الهدف، وفعلا كان لنجاح هذه الهجمات صدى واسعا، جعل من زيغود ومساعديه منقذين للثورة في هذه المرحلة الصعبة.

كما حصل بعد تلك الهجمات تطور هام في نشاط الثورة بالشمال القسنطيني، ففي منتصف نوفمبر 1955 حضر ابن طوبال اجتماعا هاما لقيادة المنطقة ترأسه زيغود، اختار مكانا مؤمنا في طيراوي بدوار أولاد مبارك، يشرف عليه لمر محمد بن ساسي التابع لمسؤولية ابن طوبال، كان اجتماعا هاما لتقييم المرحلة

1 - شهادة ابن طوبال، المنظمة الوطنية للمجاهدين: الطريق الى نوفمبر كما يروها المجاهدون، ج 3، مصدر سابق، ص 232- 235

2 - المصدر نفسه.

السابقة ومجابهة المستقبل بتخطيط محكم⁽¹⁾، وبطيراوي استقبال زيغود ونوابه في فيفري 1956 عون الاتصال القادم من العاصمة عمارة رشيد⁽²⁾، وبعدها استقبال سعد دحلب الذي سجل انطباعات قيمة عن نجاح الثورة بالشمال القسنطيني⁽³⁾. وفي شهر رمضان عام 1956 انتقل ابن طوبال رفقة زيغود وطاقمه من بني صبيح الى مركز بن تليلن، وفي جوان 1956 أنشأت قيادة المنطقة مركز تشكيل للتجمع والتكوين والاتصالات، عقد فيه زيغود اجتماعا حافلا، وفي جويلية 1956 غادروا المركز في اتجاه بني فرقان⁽⁴⁾، لقد أعجب زيغود بما تحقق في هذه الناحية التابعة لابن طوبال، وقتها كانت الناحية الغربية مؤطرة بعدد من المسؤولين منهم: حسين بن سالم المدعو مسعود الطاهيري، عمار قنون، رمضان نصري، شهاب عبدالسلام، مسعود بوعلي، أحمد لعبودي، العربي الميلبي بلرجم، بن مبارك عز الدين⁽⁵⁾.

رابعا / ابن طوبال ومؤتمر الصومام :

يعد الشهيد زيغود يوسف من بين قادة الثورة الذين اقترحوا منذ وقت مبكر عقد مؤتمر وطني لقيادة الثورة، وقد تلقف عبان الفكرة وعمل على تجسيدها في أوت 1956، فاتح زيغود دحلب بالموضوع، وجاءت الموافقة من قيادة المنطقة الرابعة، وأعد زيغود وابن طوبال منطقة آمنة لعقد المؤتمر وهي بوازعرور بالقل، ولكن تقرر أن يعقد المؤتمر بوادي الصومام، سافر زيغود الى منطقة القبائل مصحوبا بنائبه ابن طوبال وابن عودة، وكذا علي كافي وحسين رويح وابراهيم مزهودي، كانت الرحلة موفقة كما يشهد كافي⁽⁶⁾، افتتح مؤتمر الصومام أعماله يوم الثلاثاء 14 أوت 1956 لتنتهي يوم 23 أوت، وذلك بمشاركة معظم قادة الثورة عدا قادة الوفد الخارجي ومنطقة الأوراس، وشارك في مداوات الاجتماع رمضان عبان ممثلا لمنطقة الجزائر العاصمة، وكريم بلقاسم ممثلا للمنطقة الثالثة، وعمار أوعمران ممثلا للمنطقة الرابعة، وزيغود يوسف ومعه ابن طوبال استثناء ممثلين للمنطقة الثانية، ومثل ابن محمدي المنطقة الخامسة دون أن يستشير نوابه⁽⁷⁾.

1 - ابراهيم شيبوط: زيغود يوسف الذي عرفته شهادة، منشورات، دار غرناطة للنشر، الجزائر، 2011، ص 76-78، وعلي كافي: المصدر السابق، ص - ص 119-123.

2 - ابراهيم شيبوط: المصدر نفسه، ص 78

3 - DAHLAB Saad ;Pour l' Indépendance de l'Algérie ;mission accomplie ed, Dahlab, Alger, 1990, p p 49-51

4 - ابراهيم شيبوط: المصدر نفسه، ص ص 89-90

5 - ابراهيم شيبوط: المصدر نفسه، ص 136

6 - كافي علي: المصدر السابق، ص ص 128-129

7 - انظر مقلاتي عبدالله: المرجع في تاريخ الثورة الجزائرية ونصوصها الأساسية 1954-1962، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2012، ص 64.

وخلال جلسات الاجتماع تم تقييم حصيلة اثنين وعشرين شهراً من الكفاح، ودرس كل ما يتعلق بشؤون الثورة، وعلى ضوءها تم توضيح آفاق المستقبل وإستراتيجية العمل، وإن كان المجتمعون متفقين على كثير القضايا فإن نقاشاتهم لم تخل من الحدة والجدال، ويبدو في نظرنا بروز جبهتين في هذا النقاش، يمثل الجبهة الأولى زيغود يوسف بثقله المحترم ومعه ابن طوبال، ويمثل الثانية بقية الأعضاء الثلاث الذين يبدو أنهم جاءوا إلى المؤتمر متفقين على المقررات بحكم ارتباطهم من قبل بتنسيق وثيق، ومع ذلك كانت جبهة زيغود التي عززت استثناء بنائيه ابن طوبال قوية، لكنها تمثل أقلية ظلت تناقش بحدة بعض المسائل الخلافية ومنها:

- مسألة التمثيل : تساءل زيغود وابن طوبال عن عدم حضور ممثل الأوراس، وبالخصوص الوفد الخارجي، وعبرا عن تخوفهما من هذا الغياب الذي ينقص من قيمة المؤتمر، وذلك بحكم أهمية منطقة الأوراس ودورها في الثورة وثقل قادة الخارج وقوة نفوذهم المعنوي.

- مبدأ "أولوية الداخل على الخارج" و"أولوية السياسي على العسكري": فقد عارض زيغود وابن طوبال بشدة المبدأين، وبخاصة المبدأ الثاني معتبران أن القائد يجب أن يكون سياسيا وعسكريا في الوقت ذاته.

- إلحاق المعتدلين بقيادة الثورة: إذ اعترض زيغود وابن طوبال على تولي المعتدلين أية مسؤوليات قيادية في الجبهة لأن ذلك يضر بالثورة، وهذا الأمر جعله يسر لمراقبيه بالعبارة الخالدة " الاستقلال ممكن التحقيق أما الثورة فقد انتهت"⁽¹⁾.

وأمام ذلك كان زيغود وابن طوبال أمام موقف حاسم، يعبر عن تغير إستراتيجي في مسار وقيادة الثورة، وهجنة السياسيين على سلطة الثورة، كان اليأس يعم مشاعر زيغود وابن طوبال بسبب القرارات المتخذة رغما عنها، وخاصة مسألة أولوية السياسي على العسكري، وقد كلف المؤتمر ابن عودة بمهمة التسليح في تونس، وزيغود بمهمة إصلاح ذات البين في الأوراس، وبعد استشهاد هذا الأخير وانتقال ابن عودة للخارج كان الطريق ممهدا لابن طوبال لتولي مسؤولية الولاية الثانية.

بعد أربع سنوات عاد ابن طوبال لتقييم المؤتمر، حيث اعتبر المؤتمر ومقرراته نقلة نوعية في مسيرة الثورة التحريرية، وتحدث عن إيجابيات مؤتمر الصومام لإطارات جبهة التحرير الوطني في مستهل عام 1960 بالقول: "...لكن هذا المؤتمر رغم نقائصه ورغم ضعف التمثيل على المستوى الوطني أقام مع ذلك وحدة نظامية، وحقت الجزائر لأول مرة مثل هذه النتيجة، وشهدنا لأول مرة مثل هذا التنسيق ومثل هذه

1 - حول هذه القضايا قدم ابن طوبال شهادة ثمينة للصحفي منصر أوبترون جريدة "أوريزون"، عدد يوم 20 اوت 1995.
واظفر كذلك: علي كافي: المصدر السابق، ص 107، وشهادة ابن طوبال لمحمد عباس: نصر بلا ثمن، مرجع السابق، ص 159.

المعركة، أعني تنصيب هياكل كانت هي الهياكل نفسها في جميع الأماكن، ولأول مرة كان لنا جيش موحد لم يكن له في السابق من الجيش إلا الاسم ... ولأول مرة أيضا في تاريخ ثورتنا حدد ما يشبه المبادئ، أو خطوط السير لثورتنا فخطيت بنفس جديد وبروح جديدة لاستئناف سيرها وبقوة أزيد وثقة في المستقبل، وقيادة موحدة في هذا الوقت كان التنسيق فعليا بين الولايات، كما أن التنسيق بين الداخل والمنظمة في الخارج كان حقيقيا، وهو ما لم يكن موجودا من قبل".⁽¹⁾

خامسا / قيادته للولاية الثانية وعضويته لجنة التنسيق والتنفيذ :

تجمع الشهادات أن زيغود قبل انتقاله الى الأوراس عقد اجتماعا لإطارات الولاية الثانية، حدد فيه المسؤوليات وأقر بأن يكون ابن طوبال قائدا للولاية في غيابه⁽²⁾، وكان ذلك يعني تزكيته لقيادة الولاية في حال استشهاده، كان ابن طوبال محل تزكية إطارات الولاية فهو نائب زيغود ورفيق نضاله، ومع ذلك لم تكن مهمته في قيادة الولاية الثانية سهلة (سبتمبر 1956 - أبريل 1957)، كان يتوجب إرساء التنظيمات التي نص عليها مؤتمر الصومام ومجابهة مخططات العدو، وتفعيل التنظيم السياسي والعمل الثوري، لقد أصبحت الولاية تضم خمس مناطق، وتشرف على مصالح أسهمت في تطوير الهياكل العسكرية والسياسية والاجتماعية والإدارية، وقد حرص ابن طوبال على مراقبة تلك المناطق والمصالح واستفاد من الإطارات المثقفة (ابن بعلوش وخان وكافي وبوبنيدر... الخ)، وهكذا أصبحت الولاية الثانية ولاية نموذجية عندما تقرر انتقال ابن طوبال مع عضوي لجنة التنسيق والتنفيذ كريم وبن خدة إلى تونس⁽³⁾.

فقد قرر قادة لجنة التنسيق والتنفيذ الحفاظ على الثورة وعدم المغامرة بالبقاء داخل الوطن، واتفقوا على أن يسلك كريم وبن خدة مع ابن طوبال طريق الشرق لدخول تونس عبر الولاية الثانية، ويتوجه عبان ودحلب إلى الغرب لدخول المغرب عبر الولاية الخامسة.

في بداية جوان اجتمع قادة لجنة التنسيق والتنفيذ في تونس، تدارسوا انعكاسات إضراب الثمانية أيام، وتطورات القضية الجزائرية، واستعدوا لخدمة أهداف الثورة، كان لهم نشاط حثيث في تونس (تنظيم القاعدة، اتخاذ قرارات سياسية وعسكرية، الاتصال بالسلطات التونسية)، وقد لقيت قيادة الثورة استعدادا كاملا في تونس لدعم الكفاح الجزائري، ولكن الخشية من الوقوع في يد العدو الذي ما يزال يحتفظ

1 - انظر ص المداخلة المؤرخة يوم 14 مارس 1960 بالأرشيف الوطني الجزائري A N A, GPRA, B49, Dos 1.

2 - علي كافي: المصدر السابق، ص 138

3 - عرض كافي صورا نادرة لعضوي لجنة التنسيق والتنفيذ في الولاية الثانية، انظر علي كافي: المصدر نفسه، ملحق الصور

بنفوذ في تونس وازدياد ضغوط بورقيبة الداعية إلى قبول دخول المفاوضات مع فرنسا دون اشتراطات دفعت باللجنة إلى اتخاذ قرار الانتقال للقاهرة واتخاذها مقرا دائما⁽¹⁾.

وفي القاهرة قدم دباغين قادة لجنة التنسيق والتنفيذ لفتحي الديب وعبد الناصر، وقد أحس قادة الثورة فعلا بأن الثورة قد كبرت ويتوجب أن يكبروا معها، كان نشاطهم في القاهرة مختلفا عن أجواء معركة الجزائر، فهو قائم على لقاء الوفود الدولية وإقامة الندوات الصحفية وتنشيط العمل الدبلوماسي، وكانت أجواء القاهرة مناسبة لمعارض عبان لعزله، في هذه الظرفية طرحت مسألة تشكيل لجنة التنسيق والتنفيذ، فتم الاتفاق على استخلاف بوصوف لابن مهيدي، وحصل الاختلاف بخصوص توسيع اللجنة وإعادة تشكيلها، وكان كريم قد ضاق ذرعا بتصرفات عبان التسلطية وخطط مع بوصوف المرتبط بعلاقات وثيقة مع المخابرات المصرية ومع ابن طوبال لوضع حد لسلوك عبان، ووجد هذا الأخير نفسه معزولا في القاهرة أمام إرادة المتحالفين ضده في السيطرة على دواليب السلطة داخل جبهة التحرير الوطني⁽²⁾. وقد استفاد ابن طوبال من نفوذ بوصوف ليعقد مع كريم حلفا صلبا لقيادة الثورة عرف بحلف الباءات الثلاث، والذي كان بمثابة نواة القيادة الأساسية لجبهة التحرير الوطني، وذلك بعد تمهيش وإزاحة عبان من إدارة سلطة قيادة تلك الجبهة، وعن حقيقة هذا الحلف يقول ابن طوبال: "إني أنا وبلقاسم كريم وعبد الحفيظ بوصوف من حزب سياسي واحد هو الحركة من أجل الانتصار للحرية الديمقراطية ومن القدامى في المنظمة الخاصة ومن المفجرين الأوائل للثورة، ولذلك فإنه محكوم علينا أن نتفاهم مع بعضنا بعضا مهما تباينت آراؤنا واختلفت نظرتنا للأشياء"⁽³⁾.

وخلال اجتماع الدورة الثانية للمجلس الوطني للثورة بالقاهرة أوت 1957 هندس الباءات الثلاث للاستحواذ على السلطة وتمهيش عبان وحلفائه السياسيين، كانت الحظلة مدروسة وحققت أهدافها الثورية، استقرت السلطة بأيدي العسكريين الخمسة قادة الولايات (كريم، ابن طوبال، بوصوف محمود الشريف، وأوعمران)، والذين انفردوا بإدارة شؤون الثورة انطلاقا من تونس، وهو ما كان يغضب أحيانا شركائهم السياسيين في قيادة اللجنة (دباغين فرحات ومهري)، وقد أبدى ابن طوبال تحفظا على تعيين عباس في عضوية اللجنة، حيث يوضح محمود الشريف ذلك بقوله: "وبعد مساع ونقاشات متنوعة تقرر توسيع لجنة التنسيق والتنفيذ ليشمل السياسيين علاوة على ممثلي الولايات، وإذا كان تعيين العسكريين لا يطرح أي إشكال فان تعيين السياسيين على العكس من ذلك، لا يتم إلا بعد خلافات وصعوبات جمّة،

1 - انظر عن نشاط اللجنة بتونس وعلاقتها ببورقيبة، مقلاتي عبدالله: العلاقات الجزائرية المغربية الافريقية، مرجع سابق، ج 2، ص ص 33-32.

2 - انظر حربي محمد: المرجع السابق، ص ص 168-169. أنظر أيضا: DAHLAB Saad, op cit , p 86- 87

3 - محمد زروال : دور المنطقة السادسة...، مرجع سابق، ص ص 90-91

وتمثلت العقبة الأولى في إدماج عباس فرحات في القيادة، قد رفضه الحضور خاصة ابن طوبال عبدالله الذي لم يتردد في التذكير بالماضي السياسي لعباس ليؤكد بأنه لا يقبل أن يحصل على مكانة على رأس الثورة، فأجبتة أنا شخصيا بأن الماضي مضي، وأن جميع الجزائريين عليهم أن يتجنّدوا من أجل تحقيق النصر...⁽¹⁾.

ومنذ تشكيل لجنة التنسيق والتنفيذ الثانية كان واضحا أفراد العسكريين بالتسيير انطلاقا من تونس، وكان ذلك يعني هيمنة الباءات الثلاث على السلطة لسنوات طويلة، وفي إطار سياسة التوازنات داخل نواة القيادة هذه كان ابن طوبال يجابه نفوذ كريم المتصاعد، وقد حرص مثلما فعل كريم على استقدام وحدتين عسكريتين من الولاية الثانية إلى الحدود التونسية لتدعيم نفوذه في وجه نفوذ كريم المتعاظم في تونس⁽²⁾، وفي هذا الإطار اجتهد ابن طوبال بادئ الأمر من أجل تقاسم المهام العسكرية مع كريم، وأوكلت له في إطار توزيع المسؤوليات بين الأعضاء العسكريين للجنة التنسيق والتنفيذ مهمة التموين والتسليح وتوزيع الأسلحة على وحدات الجيش⁽³⁾.

وتسعدنا محاضر اجتماعات لجنة التنسيق والتنفيذ في التعرف على الدور الهام الذي أصبح ينهض به ابن طوبال في قيادة الثورة، فقد كان حريصا على تفعيل الاستراتيجية العسكرية للثورة في مواجهة السياسة الفرنسية، حيث اهتم بتسليح الداخل وتدريب الوحدات المقاتلة وتطوير القدرات الدفاعية والاستخباراتية للثورة⁽⁴⁾، وفي هذا الشأن قدم عدة تقارير الى لجنة التنسيق والتنفيذ حول مهامه، ففي اجتماع يومي 16-17 أكتوبر 1957 خالص ابن طوبال بعد تحقيقاته الميدانية للتأكيد بأن وضعية وحدات المجاهدين بالحدود مرضية، ولا ينقص وحدات إدخال الأسلحة إلا الملابس والاهتمام بوضعهم الصحي، وقرر تخصيص مبلغا شهريا لكل جندي⁽⁵⁾، وخلال هذه الفترة كانت استفادة الولايات معتبرة من الأسلحة، ومنها الولاية الثانية التي أرسلت عدة دوريات لإدخال السلاح⁽⁶⁾.

وفي أبريل 1958 أسندت لابن طوبال دائرة الشؤون الداخلية، وهي مصلحة إستراتيجية لكنها لا ترقى إلى أهمية مصلحة الحربية التي استحوذ عليها كريم، فكان يستعين على كريم بالتحالف مع بوصوف

1 - تقرير محمود الشريف، علي زغدود: المصدر السابق، ص ص 120-121

2 - محمد حربي: المرجع السابق، ص 172

3 - محضر اجتماع لجنة التنسيق والتنفيذ ليوم 2 أكتوبر 1957، بالأرشيف الوطني الجزائري، A.N.A.:G.P.R.A, B 8، و نسخة منه ضمن وثائق محمود شريف نشرها زغدود، علي زغدود: صفحات من ثورة التحرير الجزائرية، متبعة للطباعة، الجزائر، 2006، ص 76

4 - انظر المحاضر بالأرشيف العلبة نفسها، وكذا علي زغدود: المصدر نفسه، ص ص 76-121

5 - انظر نص المحضر، المصدر نفسه، ص 90

6 - بعد اجتماع نهاية عام 1957 عاد كافي وين بعطوش على راس قافلة سلاح الى الولاية الثانية، انظر علي كافي: المصدر السابق، ص 262

المكلف بمصلحة الاستخبارات، وهكذا فقد بدأ يختلف مع كريم بسبب الصلاحيات والصراع الخفي من أجل الانفراد بالسلطة، وهذا ما تؤكدته شهادة محمود الشريف⁽¹⁾، ويبدو أن هذا التحالف أقي أكله، فقد تحدى ابن طوبال سلطة كريم القوية في تونس، وأججض بذلك محاولاته المتكررة للانفراد بالسلطة، وكل ذلك إيماناً منه بأهمية الحفاظ على مبدأ القيادة الجماعية في تسيير الثورة التحريرية، وقد تكررت هذه المحاولة عدة مرات، حيث اقترح كريم نفسه لترأس أول حكومة مؤقتة، وطالب في جوان 1959 بالمنصب متدعياً بفشل فرحات عباس، وفي كل مرة كان تحالف ابن طوبال - بوصوف يقف له بالمرصاد، وقد استنفذ الأمر خلال نقاشات ومناورات اجتماع العقلاء صائفة وخريف 1959⁽²⁾.

سادسا / موقفه من اغتيال عبان :

في نهاية عام 1957 كان ابن طوبال شاهدا على اغتيال عبان، ولطالما قرأ سكوته بالسلبية واتهم بأنه شريك في تلك الجريمة المستنكرة، وفي غمرة الجدل الذي دار عام 2002 عقب تصريحات ابن بلة لقناة الجزيرة حول عبان تكلم ابن طوبال، وصرح بأن عبان قتل لأنه كان متسلطا ولا يأخذ برأي أحد في قضايا حساسة لا يمكن لأي كان أن يتصرف فيها منفردا، وأضاف أنه كان يحتقر الآخرين وبأسلوب جارح، "وللتاريخ أقول أنه كان يصف وأمام المجاهدين والقادة كريم بلقاسم ب"اغبول" ويطلق على أو عمران صفة "بوقرو" وهي كلمة قبائلية تعني غليظ الرأس، وكان مديرا للمجاهد، وقد كان ينشر بها مواقف حساسة ودقيقة عن الثورة لا يمكن أن تصدر عن شخص واحد من فيهم القادة الكبار فنبهناه للضرر الذي سيزرتب عن سلوك كهذا، لكنه واصل نهجه فبعثت له وقلت له بصرح العبارة لقد أرسلني إليك عبد الحفيظ بوصوف وكريم بلقاسم بأمرانك وأنا معهم بالتوقف عن هذا السلوك، فمسيرة الثورة ليست بالبساطة التي تتصورها، وإذا ما رفضت الانصياع فإنك ستحل على المجلس التأديبي، لكن الرجل لم يعبأ لا بهذا التحذير ولا بغيره من التنبيهات، وبعد ثلاثة إنذارات وجهت له أتخذ قرار محاكمته بالمغرب"⁽³⁾.

وتتفق رواية ابن طوبال مع شهادة محمود الشريف وأو عمران في أن عبان قتل من دون محاكمة، وأنهم عارضوا مسألة إعدامه، وتفاجئوا بما دبره بوصوف، حيث جاء فيها: "وهكذا انتقل رفقة بلقاسم كريم ومحمود الشريف من تونس إلى إيطاليا فاسبانيا ثم المغرب، لتتم تصفيته بمدينة تطوان، وقد حدث هذا على ما أذكر في شهر ديسمبر من عام 1957، وقد أخبرني بالخبر كل من كريم بلقاسم ومحمود الشريف ومنصور بوداود عند عودتهم إلى تونس، لقد استهجت فعلتهم وقلت لهم بالحرف لم تنتف على هذا بل اتفقنا على سجنه عند

1 - شهادة محمود الشريف، علي زغدود: المصدر السابق، ص 203

2 - محاضر تقارير اجتماع العقلاء بالأرشيف الوطني الجزائري ، 10A.N.A.: CNRA-Microfiche , C0

3 - شهادة ابن طوبال، جريدة الخبر، عدد 15 ديسمبر 2002

وصولكم إلى المغرب ثم محاكمته، ولننفذ فيه حكم الإعدام إذا ما سلط عليه عندها قلت لهم إنها مصيبة وما علينا إلا الإعلان عن استشهاده وهذا ما تم بالفعل"⁽¹⁾، وعلى ضوء ذلك يتأكد لنا أن ابن طوبال لم يكن طرفاً في اتخاذ قرار إعدام عبان، وقد وافق على اعتقاله في المغرب لا إعدامه، وقد تفاجأ لما أعلمه كريم ومحمود بمقتل عبان، واعتبر أن الأمر خطير، عقد عدة اجتماعات مع رفاقه لمعالجة الوضعية السوداوية التي تمر بها قيادة الثورة، وخاصة مواجهة السياسيين شركائهم في القيادة، وحصل الاتفاق على تحمل المسؤولية الجماعية لمقتل عبان والتستر على مقتله، وفصل القادة السياسيين من لجنة التنسيق والتنفيذ لتجنب مسائلتهم وتعطيلهم للجنة، وحسب شهادة أوعمران فإن ابن طوبال لما وصل للقاهرة تراجع عن قرار فصل السياسيين من القيادة⁽²⁾، ويبدو أن ابن طوبال أدرك عاقبة اتخاذ مثل هذا القرار، إذ لم يكن مستسيغاً طرد دباغين وعباس ومهري من قيادة لجنة التنسيق والتنفيذ من دون مبرر وانفراد العسكريين بالسلطة، وقد أخذ السياسيون على رفاقه العسكريين تغيبهم لعبان وقاطعوا اجتماعات اللجنة إلى غاية معرفة الحقيقة، وتدخل ابن طوبال بحكمته لمعالجة الوضع، واقترح إبلاغ السياسيين والرأي العام أن عبان سقط شهيداً في الميدان كمخرج لهذه الوضعية المعقدة⁽³⁾.

سابعا / ابن طوبال وزيرا للداخلية :

تولى ابن طوبال وزارة الداخلية في الحكومة المؤقتة 1958-1962. وكان له دور حاسم في قيادة الثورة رفقة كريم وبوصوف، وقد كان يشرف على مصالح كثيرة في هذه الوزارة، منها :

أ - الإدارة

ب - تنظيم جبهة التحرير في المغرب وتونس

ج - تنظيم جبهة التحرير الوطني في فرنسا⁽⁴⁾.

كما تولى ابن طوبال مصلحة اللاجئيين والمنظمات وقطاع الصحة، وهو بذلك كان يشرف على وزارة سيادية مثله مثل كريم وبوصوف، وقد تحالف مع بوصوف ضد محاولات كريم لتصدر قيادة الثورة، ونجحا في ذلك، فتصدى لنفوذ كريم وتمكن من توسيع صلاحيات وزارته على حساب الوزارات الأخرى، خاصة في مجال الإشراف على المنظمات واللاجئيين في تونس والمغرب⁽⁵⁾.

1 - شهادة ابن طوبال المصدر نفسه

2 - تقرير كتبه اوامرمان في ماي 1958، نشرته، الجزائر نيوز، عدد يوم 20 أوت 2010

3 - شهادة عبدالمحميد مهري للباحث، مقابلة يوم 7 أوت 2005، الجزائر العاصمة.

4 - HARBI Mohammed:Les Archives de la revolution Algerienne , op cit, p 182

5 - شهادة محمود الشريف، علي زغنون: المصدر السابق، ص 206

ومن خلال عضويته في الحكومة ومكانته بين ما عرف بالباءات الثلاث رسم ابن طوبال استراتيجية عمل الثورة، وخاصة ما تعلق بتضييق دائرة اتخاذ القرارات الحاسمة بين الباءات الثلاث ومن دون تدخل رئيس الحكومة، والحفاظ على الأهداف الثورية السياسية والعسكرية للثورة، والعمل على تقوية مؤسسات الثورة، ونستشف ذلك من خلال تقاريره الدورية المقدمة باسم وزارته للحكومة وللمجلس الوطني في دوراتها العادية والاستثنائية⁽¹⁾، حيث كانت توصياته تؤخذ بعين الاعتبار، وكلمته تجمع الصفوف، وتدخلاته في المسائل الداخلية والخارجية حاسمة، وقد اكتسب مع مرور السنوات خبرة وحكمة سياسية سمحت له بحل المشاكل والخلافات المستعصية واتخاذ القرارات المناسبة للثورة، وفي هذا الشأن نشير الى دوره في حل بعض خلافات التمرد (تمرد علي حنبلي - تمرد سي الزويير...)، ورأب الصدع مع بعض الدول العربية، فض الخلاف مع بورقية اثر قضية لعموري، إعادة العلاقات مع عبد الناصر اثر خلاف عام 1959.

ثامنا / ابن طوبال حكما ومنظرا :

عرف ابن طوبال بفضته ودهائه وبحكمته وخبرته في الشؤون العسكرية والسياسية، وتعتبر تجربته الطويلة والناجحة في التسيير وقيادة الثورة مدرسة ثرية بأفكارها ومبادئها، وهو موضوع يستحق منا مزيدا من البحث، وقد تحدث في شهادته بعد الاستقلال عن نظريته لتجربة قيادة الثورة قائلا: "لقد كانت لنا صعوبات في التسيير، لأنه لم يكن لدينا خبرة، وهذه أول مبادرة وأول تجربة لنا في تسيير الثورة، كانت لنا صعوبات في التخطيط وفي التفكير، لكن الشيء الذي لم يحدث أبدا منذ أول نوفمبر إلى غاية 1962 هو أننا لم نقبل أبدا بأي تدخل من أية دولة أجنبية في شؤون الثورة الجزائرية، ولم نقبل أبدا بأية إعانة مشروطة سواء من عند الدول العربية أو من عند الدول الاشتراكية التي أعانتنا بالأسلحة ... ولم يكن الفضل في ذلك يرجع إلينا كسريين، لأن الثورة كانت قوية وكانت مسيطرة، وكانت لها قوة أدبية في الخارج، مما ساعدها على عدم قبول أية شروط ولأن شعبنا كان وراءها وخضنا صراعات كبيرة مع دول كبرى، لأننا كنا قد وضعنا قوة ثورتنا أمامنا"⁽²⁾. برز ابن طوبال بعد اغتيال عبان وتهميش السياسيين منظرا للعسكريين بلا منازع، هذا ما تثبته الوقائع والشهادات⁽³⁾، وقد تعودت في استجواباتي لقادة الثورة أن أسألهم عن منظر

1 - وقفنا في الأرشيف الوطني على تقارير متعددة لابن طوبال باسم وزارة الداخلية ومنها، تقرير وزارة الداخلية المقدم للمجلس الوطني للثورة الجزائرية 1959-1960، علبه مصورة رقم: C017

وتقرير وزارة الداخلية المقدم لمؤتمر المجلس في أوت 1961، علبه مصورة، رقم C039، والتقرير المقدم لمؤتمر المجلس الوطني للثورة في 22-28 فيفري 1962، علبه مصورة رقم: CO 045، وكذا مداخلات ابن طوبال أمام المجلس الوطني للثورة، مثل مداخلته يوم 26 أوت 1961 و م و ث، علبه مصورة رقم: C021

2 - شهادة ابن طوبال، المنظمة الوطنية للمجاهدين: الطريق الى نوفمبر...، مصدر سابق، ص ص 31-32

3 - انظر شهادة بحري، مقابلة مع الباحث، سبق ذكرها، وشهادة او عمران، المصدر السابق، وشهادة محمود الشريف، علي زغدود: المصدر السابق، ص 245

الثورة وحكيمها في كل مرحلة، فكانت الإجابات تجمع أن ابن طوبال هو من استحق هذه اللقب بعد مقتل عبان، أحدهم وهو الطيب الثعالبي عضو المجلس الوطني منذ عام 1956، فهذا المجاهد السياسي عمل مع كبار قادة الثورة وتعرف عليهم عن قرب، عبان وبن محمدي وزينغود وابن طوبال وبوصوف، وهو يؤكد أن ابن طوبال تميز عنهم بحكمته وثقافته العالية، وقدرته على التنظيم والتوجيه⁽¹⁾، وبدوره يعد محمدي عبدالمحميد ابن طوبال أحد أبرز حكماء الثورة التحريرية وأحد أمهر مسيرتها⁽²⁾.

ومقارنة مع أقرانه العسكريين ككريم وبوصوف يعد ابن طوبال أكثرهم تحصيلًا للعلم، فهو قد درس المرحلة الثانوية بقسنطينة وإن لم يكملها، وبذلك ينافس أولئك المثقفين المتحصّلين على البكالوريا مثل عبان وبن خدة ودحلب، كما كان ثوريا حكيما وخبيرا، فمن أين اكتسب ابن طوبال حكمته؟، نعتقد على ضوء شهادته أنه اكتسبها من مدرسة الوطنية وسنوات النضال الطويلة، فهو قد أقر مرة أنه كان مناضلا بسيطا إلى عام 1950، "وعندما فتحتنا أعيننا وعرفنا ما هي الوطنية، وانخرطنا في الحركة السرية كنا عاجزين عن التحليلات، ولم يكن بمقدورنا أن نتقدم بنظريات أو مذهب أو توجيه للحزب، نحن عندما انخرطنا في الحزب كان فهمنا بسيطا"⁽³⁾.

وخلال تجربته في التسيير بالولاية الثانية وعلى رأس وزارة الداخلية واللجنة الوزارية للحرب أظهر ابن طوبال حنكة سياسية في معالجة المشكلات التي تواجه ثورة تحريرية، وقدم توجيهات سديدة في إدارة شؤون الثورة السياسية والعسكرية، وبحكم إدارته لوزارة الداخلية أظهر رزانه في تسيير مختلف القضايا المتعلقة بمنظمات الثورة وفدرالياتها واللاجئين في تونس والمغرب، وسهر على تكوين نخبة إدارية مدنية لتسيير وزارته التي تعد نواة لمؤسسات الدولة الجزائرية المستقلة، وخاصة حزب جبهة التحرير الوطني، والذي كان ابن طوبال يعول عليه في تسلم السلطة وإدارة البلاد، ومع الأسف فإن الجناح العسكري هو الذي استولى على السلطة وهشم المناضلين المدنيين.

ويصفته قياديا للثورة سهر ابن طوبال على إيجاد الحلول الملائمة للمشكلات اليومية التي تعترضها، وفض الخلافات والنزاعات التي تنخر جسدها، وخاصة بعض التمردات والنزاعات بين مؤسسات الثورة مثل الصراع بين الحكومة وهيئة الأركان والزعماء المعتقلين، وإيجاد تسويات سلمية لخلافاتها مع بعض الدول الشقيقة مثل الخلاف مع بورقيبة وعبدناصر والحسن الثاني.

1 - شهادة الطيب الثعالبي، مقابلة مع الباحث، الجزائر، 16 مارس 2006

2 - شهادة عبدالمحميد محمدي، مقابلة مع الباحث، الجزائر، 7 أوت 2005

3 - شهادة ابن طوبال، المنظمة الوطنية للمجاهدين: الطريق الى نوفمبر...، مصدر سابق، ص 26

وبرزت حكمة وخبرة ابن طوبال في معالجة ملف المفاوضات، حيث كان متشددا في ضرورة تحقيق جميع مطالب الثورة، ودنامكيا في اقتراح المبادرات التي تقطع جولات التفاوض، ودبلوماسيا في جمع كلمة قيادة الثورة وكسب مواقف الدول الشقيقة والصديقة لصالح الثورة.

وفي الجزء المنشور من مذكراته نقرأ بمعن نظرة ابن طوبال الحكيم، ونستشف تخوفاته على مصير الثورة، وهو يتحدث عن الصعوبات التي واجهت قيادة الثورة عام 1958 نتيجة أزمة السلطة ومشكلة لعموري والخلاف مع عبدالناصر، يحص ابن طوبال الأسباب الحقيقية لهذه الأزمات، ويوضح مثلا أن عبدالناصر كان متورطا في أزمة لعموري، وأن الحكمة كانت تقتضي أن يسير وفد حكومي لمصارحته ومصالحته في الآن ذاته، ويشرح ابن طوبال أسباب تفجر الأزمات عام 1958 مرجعا إياها للصعوبات التي كانت تواجهها المقاومة في الداخل وعدم دخول الأسلحة وهجمة مخطط شال الشرسة، ووجود القيادة في الخارج، ويذكر ابن طوبال بالحلول الحكيمية التي تقدم بها والتي كان يقابلها أحيانا مقترحات مناورة لا تخدم الثورة الجزائرية، فمثلا نفذ صبر كريم عام 1958 واقترح المواجهة مع بورقية عسكريا ولكن ابن طوبال فرض ضرورة حل المشكلة سلميا⁽¹⁾.

لقد كان ابن طوبال حريصا على كتابة مذكراته ونشرها، ولكن صعوبات جمّة اعترضني حياته، وظلت قائمة بعد مماته، ولعل ذلك يرجع إلى أن ابن طوبال يمثل حقا العلبة السوداء للثورة التحريرية، وتكتسي شهادته أهمية قصوى.

وإنه وعلى الرغم من دور الرجل في الثورة فقد همش إثر الإطاحة بالحكومة المؤقتة واستيلاء تحالف تلمسان على السلطة بالقوة، حيث اعتقل في قسنطينة لفترة ثم أطلق سراحه، وفي مرحلة تالية أسندت له بعض المناصب الإدارية في الدولة، فعين في سنة 1965 مديرا للشركة الوطنية للتعددين، وتولى بعدها رئاسة الاتحاد العربي للحديد والصلب، وبعد تقاعده كتب ابن طوبال مذكراته في بداية الثمانينات، ولكن ظروفها خاصة حالت دون نشرها، وينتظر الباحثون بشغف صدورها نظرا لأهمية شهادة صاحبها ولكونها ستعبر عن وجهة نظر مغيبة للقادة الثلاثة الذين أداروا شؤون الثورة بسرية لسنوات، وقد توفي ابن طوبال رحمه الله عام 2011.

الخاتمة:

من خلال ما سبق عرضه من مسار ومواقف ابن طوبال يمكن تسجيل ما يلي:
- يعد ابن طوبال شخصية وطنية ثورية بارزة، كان لها دور فاعل في الحزب وفي المنظمة الخاصة، وأسهمت بفعالية في تحضير وقيادة الثورة التحريرية بالشمال القسنطيني.

1 - L, ben tobal, fragments de mémoires, naqd, 04.janvier- mars 1993, p p 3 -9.

- تولى ابن طوبال مسؤوليات قيادية عليا في الثورة ، وبرز عام 1957 عضوا في قيادة لجنة التنسيق والتنفيذ، حيث أبرم تحالفا عسكريا مع كريم وبوصوف شكل النواة الحقيقية لقيادة جبهة التحرير إلى غاية تحقيق الاستقلال.

- لقد جمع ابن طوبال بين التجربة الثورية في الجبل والعمل السياسي والإداري في المناصب الحكومية، وأكتسب خبرة كبيرة في تسيير الثورة وقيادة مؤسساتها نحو تحقيق أهدافها وإنجاح الثورة.

- إن ابن طوبال عرف بحكمته ودهائه في مواجهة السياسة الفرنسية ومواجهة المناورات المحاكة ضد الثورة، وكان بتوجهه الثوري الراديكالي وحكمته السياسية حريص على تحقيق مبادئ الثورة ونشر أفكارها التحريرية وبناء المجتمع ومؤسسات الثورة وفق تصورات مشروع الثورة، ولكن هيمنة العسكر على السلطة وتميش وزراء الثورة المخنكين مثل ابن طوبال لم يسعف في تجسيد المشروع خلال مرحلة الاستقلال.